كلمة الأستاذة الدكتورة

وداد عفيف قاضي

الفائزة (بالاشتراك) بجائزة الملك فيصل العالمية

للأدب العربي لعام 1414هـ / 1994م

صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز
النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء
ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام
أصحاب السمو الأمراء
أصحاب الفضيلة والمعالي السعادة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد:

فإنه ليشرفني أن أقف اليوم بينكم بمناسبة نيلي جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي للعام 1414هـ / 1994م. إنها مناسبة تبعث على الغبطة لتشريفي بهذه الجائزة الرفيعة. ولتعرفي عن كثب على هذه المؤسسة الكبرى من مؤسسات العلم والرعاية للبحث العلمي، والتأمل فيما قمت به من أجل تجديد الالتزام بالاستمرار على هذا النهج من العمل العلمي في المجال الأدبي والثقافي من مجالات حضارتنا العربية الإسلامية العريقة.

بدأ شغفي بالنثر العربي القديم منذ أن كنت طالبة في السنة الثالثة في الجامعة، عندما حضرت درسا في هذا الموضوع ألقاه أستاذي الكبير الدكتور إحسان عباس، إذ بدا لي أن كبار كتاب النثر العربي كالجاحظ وأبي حيان التوحيدي هم عمالقة من عمالقة الفكر فضلا عن أنهم سادة من سادات الأسلوب. هذه الفكرة جعلتني أستأذن أستاذي في أن أكتب بحثا عن فكر الجاحظ الديني بدلا من وجه أسلوبي من وجوه نثر ذلك الكاتب العظيم. ووافق أستاذي، فكان البحث الذي كتبته منذ ثلاثين سنة بداية رحلة طويلة ما تزال مستمرة حتى اليوم.

ولقد قمت خلال العقود الثلاثة هذه بكتابة بحوث في العوالم الفكرية للنثر الفني العربي, وقرأت أصوله وتطوراته, وعالجت مشكلات مهمة في سياقه. فدرست نواحي عدة من نثر أبي حيان التوحيدي, وخاصة تصوره لمجتمعه, وتحليله الوجودي لغربة الإنسان في المجتمع والكون, ورؤيته للعلاقة بين المفكر والسلطان السياسي الإسلامي في زمانه. من أمثال بديع الزمان الهمذاني وابن حيان الأندلسي0 وعكفت على تحليل رسائل مؤسس النثر العربي عبد الحميد الكاتب, فاستخلصت منها الدور الذي قامت به الدولة في صياغة الفكر السياسي الإسلامي المبكر. كذلك درست مسألة موثوقية بعض الرسائل العربية المبكرة, وبخاصه رسائل عبد الحميد الكاتب, وحللت التأثير العميق للقرآن الكريم على هذا النثر, كما نراه في أعمال عبد الحميد وبشر بن أبي كبار البلوي0 ولقد حققت عددا من أمهات الكتب في النثر العربي, مثل كتابيْ التوحيدي "الإشارات الإلهية" و "البصائر والذخائ", كما حاولت في كتابي "مختارات من النثر العربي" أن أقدم النثر العربي على أنه نموذج من نماذج الأدب العالمي, شأنه شأنها في الاهتمام بالقضايا الإنسانية العامة0

لكن مركز اهتمامي فيما يتعلق بهذا النثر ظل مسألة البنية وعلاقتها اللغوية والأسلوبية والاجتماعية والسياسية0 ففهم البنية العميقة لهذا النثر بقى في نظري النهج الأكثر جدوى لتعقل المراحل التكوينية للنثر العربي, واستنطاق تلك البنية تحليلا وتركيبا ظل الوسيلة الأكثر نفاذا لفهم مراحل تطوره, وتشعب فنونه, واختلاف وظائفه. ولقد رجوت من وراء كثير من دراساتي في بنية النثر العربي تمهيد الطريق لمعجم تاريخي للغة العربية. أما الهدف النهائي من وراء تلك الدراسات, فالاقتراب من نظرية نقدية تأثيرية أو تأويلية عربية, تمكننا من التوصل لقراءة نثرنا وأدبنا من داخله, فتكون منجزات العلوم الاجتماعية والأدبية الحديثة وسائل ومهارات وأدوات بأيدينا, وليس الأساس النظري لفهم البنية العميقة لتراثنا الأدبي.

لقد تيسر لي الانتقال إلى آفاق جديدة في قارة بعيدة, وهذا من صنع الله عز وجل لي, إذ حملت إلى مواطني الجديد شرف الرسالة العلمية ورسالة الحضارة الإسلامية التي تشربتها من عمالقة النثر العربي وغيرهم من صانعي تلك الحضارة0

وفي نهاية كلمتي لابد من إسداء الشكر إلى أهله. إن ما حققته ما كان من الممكن له أن يتم لولا المعونة التي تلقيتها من أشخاص ومؤسسات أدين لهم ولها بالعرفان العميق. إنني من مدينة

بالكثير إلى كل فرد من أفراد أسرتي, ولقد صبروا علي صبرا ما بعده صبر وأنا أجلس أياما منصرفة إلى عملي, وإلى أساتذتي الذين كانوا مستعدين أبدا لإنفاق الوقت والجهد في تدريبي. ولا أنسى الجامعة الأمريكية في بيروت، جامعتي الأم. فقد قضيت فيها سني التكوينية. وإنني لأعترف بعرفان عميق للدعم الذي أمدتني به جامعتي، جامعة شيكاغو، أساتذة وإدارة، إذ رشحوني لنيل هذه الجائزة الرفيعة، وأحاطوني بتقدير شخصي ومهني مؤثرين.

على أنه قبل كل شيء يتوجه شكري القلبي العميق. وعرفاني الذي يستعصي على الوصف، إلى مؤسسي وأفراد مؤسسة الملك فيصل الخيرية، ثم إلى لجنة الاختيار: لولاكم أيها السادة لما كان لنا أن نقف أمامكم اليوم محتفلين معكم بالعلم والمعرفة. وفي هذا العصر الذي تطغى فيه الأصوات الرنانة على كل ما عداها حتى لتصم الآذان، يفرح القلب أن يرى أن العمل الصامت يتكلم، وأن هناك آذانا تسمع، مهما خفت الصوت، ومهما كان مصدره، وأيان كان مأتاه.

أيها السادة:

أقول لكم بتواضع وعرفان واحترام: أشكركم جزيل الشكر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.